١٣- النبل والخسة

كان"غريب" يتابع صفحات "الفيس بوك" لفت نظره غياب تعليقات "سيف جاد" الحادة، منذ فترة طويلة، فمن غير الطبيعي أن يتوقف عن الهجوم عليه وإيذائه، وذات مساء وهو عائد من مزرعته وجد شخصًا هزيلاً يسند ظهر للحائط ويصرخ بألم شديد، في البداية ظنه مريضًا يطلب المساعدة فتوقف، وتحرك نحوه يستطلع الخبر، فقابله "شفيق الخفير" في منتصف الطريق يخبره بأن هذا الشخص هو"سيف جاد" يعاني من آثار الإدمان، ولن يهدأ إلّا إذا أخذ جرعة من الهروين.

أصابه الذهول، وشعر بالآلم جّراء كبوة غريمه، وأخذ يتمتم في سره يلعن الإدمان وتجار السموم، تقدم نحوه يواسيه ويمسح فوق رأسه برفق، فانحنى"سيف جاد" يقبل حذاءه يطلب منه النجدة، ويتوسل منه ثمن الجرعة حتى يهدأ، تملكته الحيرة، ولم يدر كيف يتصرف، فإن منحه المال سوف يدفعه نحو الشر، وإن منع عنه النقود سوف ينهش الألم جسده، فحسم أمره بسرعة، بأن اشترط عليه المساعدة بالمال في هذه المرة فقط، مقابل الموافقة على الذهاب به إلى مركز معالجة الإدمان بالقاهرة غدًا، ومن شدة الألم وافق على فوره.

جذب"سيف جاد" المال من يده جذبًا، وانطلق بسرعة يهرول يقصد بائع الهروين بالمركزعلى بعد كيلو مترات من القرية، وبعد ساعة يرجع إلى القرية، وقد عاد إليه بعض رشده، حينها تعجب من كرم أخلاق الفتى الذي طالما أساء إليه.

وفي اليوم التالي، مع الصباح الباكرأخذه"غريب"بسيارته إلى القاهرة

لعلاجه بأحد مراكز علاج الإدمان على نفقته الخاصة، وذلك حتى يضمن له حسن الرعاية، كان "سيف جاد" طوال الطريق يخفض رأسه حياءً من الفتى، فلم تمتد إليه من قبل يد كهذه، ولم يعبأ به أحد سوى هذا النبيل، شعر بالخجل من نفسه، وخاصة عندما بدأ"غريب" في الحديث معه يواسيه طالبًا منه الصبر على هذا البلاء.

شعر "سيف جاد" أن رفيقه يتمتع بنبل نادر الوجود، حاول أن يعتذر عما بدر منه في الماضي، فبادره الفتى يعفو بقلبه الطاهر، ويطالبه بأن ينسى كل ما سبق، ويداعبه لرفع معنوياته، ويبث الأمل في صدره بعذب الحديث، حتى وصلا إلى المستشفى، وكشف عليه الطبيب المختص، وقبل بدء إجراءات العلاج حرر "غريب" شيكًا بدفعة مالية كبيرة تحت الحساب، وتم إدخاله إلى المستشفى، وبعد أن أوصى الأطباء والممرضات، والممرضين عليه، عاد نحوه فأوصاه بالالتزام ببرامج العلاج، حتى تم الشفاء وبعدها عاد إلى القرية.

كان"شفيق الخفير" قد زف الخبر في القرية كلها كالرهوان، وجهر الناس "بكفر الهوى" بفضائل "غريب" ومميزاته، فقد كان يوزع نصف الزيادة في الألبان جرّاء استخدام الموسيقي بالمزرعة على فقراء القرية يوميًا، في وجبتي الصباح والمساء، ومد يد العون بإغاثة المحتاجين ببعض من المال، وعيادة بعض المرضى حاملا لهم بعض العسل من مزرعته، وظل الناس يتناقلون أخباره الطيبة طيلة الأسبوع حتى وصلت إلى مسمع "شريف حسونة الفقي" أبو حبيبته، فسر بذلك أشد ما يكون السرور، وتأكد من صفاء قلبه، فمن كان بارًا بعدوه، سيكون ملاكًا مع زوجته، وفي المساء هبط بنفسه إلى"حميدة" يبلغها أنه قد وافق على زواج ابنته من ولدها "غريب"، فعم الفرح في قلب الحبيبين، وبعدها مباشرة ذهب"غريب" وأمه للاتفاق على تفاصيل الزواج، وبعد أن فُكت العقدة الكؤود، جاء الفرج من حيث لا يحتسبان.

استقبلت "رجاء" حبيبها "غريب" وأمه بترحاب شديد، وارتباك أشد، كادت من السعادة أن تطير كالفراشة، قدمت لهما عصير الفاكهة الطازجة، وبعدها ذهبت لتضع طبق الفواكه أمامهما، وظلت كذلك طوال الزيارة ترحب بهما

مبتسمة، تارة تقدم القهوة، وتارة تقدم الشاي، وعندما بدأ الحديث التقليدي حول متطلبات العروس من شبكة ومهر، وجهاز، أغلق "شريف حسونة الفقي" هذا الباب قائلاً :

- شريف: يكفيني رجل حسن الخلق، وما عدا ذلك لا يهمني.

- غريب: يا عمي قدرها عندي أغلي من روحي، وسوف أقيم لها عرسًا لا مثيل له.

- شريف: لا داعي للمبالغة، كن بسيطًا في كل شيئ، حتى لا يقلدك أهل القرية من الفقراء، فتصعب عليهم متطلبات الزواج.

وبعد الاتفاق على كافة التفاصيل، عمت الفرحة في القلبين المشتاقين لدفء الحنان، وأشرق النورينبعث من العيون، ومن فرط السعادة تعانقت نظرات الحبيبين يتساقط منها الضياء، كأنهما يشعلان سراج الحب بروحيهما، فسمع الجميع صوت العشق، كأنهما يصرخان للجهر بالحب، ارتبكت أمه"حميدة"من فصاحة البوح في العيون، فكانتمن فينة لآخرى تقرصه في فخذه حتى لا يبالغ في النظر نحو حبيبته، وعلى الجانب الآخر تميل "سعاد" نحو ابنتها هامسة تطلب منها أن تتمالك نفسها بغض نظرها عن الفتى.

لم يستجب كلاهما للملاحظات، فذابت الكلمات العذبة تنهمر في النظرات الصامته، كأن الحبيبين يتحدثان بلغة جديدة لا تحتاج إلى من يفك شفراتها، إن النظرات سطرت في عالم الغرام نغمًا تعزفه الحواس بعبق الحب الطاهر، ربما انفصلاعن الزمن لبضع دقائق، وذهبا نحو رحلة محفوفة بالورود في حضن الخيال الفسيح، فللحبيبين شفرات مقروءة، وأخرى لا تترجم.

وعلى الجانب الآخر في عالم الصراع المحتدم بالمرارة أدى نجاح تجربة استخدام الموسيقى بالمزرعة إلى شديد الندم لدى"دياب النمر"، وزاد سخطه على من تسبب في ذلك، فقد ضاعت منه فرصة ذهبية لغسل أمواله القذرة، وخسر مجالا للفخر والتباهي، فعادت بواطن الحقد الدفين تطفو فوق وجهه،

فقد حصد "غريب" حبًا توجه فوق القلوب أميرًا، مقابل موجة من الكراهية تولدت ضد"دياب النمر"، بسبب تخاذله وانسحابه من الشراكة، واحتدم غضبه من "غريب"بسبب قيامه بعلاج "سيف جاد"، وتعجب كيف للفتى أن يترفق بمن أساء الأدب نحوه، ونحو الجميع.

لم يكن للعمدة المزيف أن يدرك معنى السماحة، فمن الصعب على تجار السموم أن يستوعبوا القيم الإنسانية، لأنهم عاشوا يفتكون بالإنسانية، ويزرعون المرض والموت في أعمار البشر زرعًا، ومن أجل حصاد الأموال المصكوكة بالدماء، يدمغون ذاكرة الشعوب بالفناء، ويحولونها هشيمًا تذروه الرياح، بتغييبها عن الوعي، فمثل هؤلاء الخونة، أشد من الطاعون فتكًا بالناس، لا مشاعر لديهم، ويتملكهم الفجور في الخصومة، كما يتملك الشيطان المخبولين بالمس.

وكأن القدر ينادي على الغدر بالغدر، فقد حان موعد عقد الصفقة السنوية التي يُبرمها"دياب النمر" في آخر أكتوبر من كل عام حول حصته من المخدرات، فاستقل سيارته، وودع زوجته قاصدًا الساحل الشمالي للقاء المورد للاتفاق على كيفية الدفع والاستلام، وعندما وصل قرب الظهيرة، أدلف نحو فيلا مستأجرة لقضاء أسبوع بها، لفت نظره أن الفيلا في مكان بعيد عن العمران ومحكمة التأمين، أبوابها ونوافذها محاطة بسياج حديدي يمنع عتاة اللصوص من اقتحامها، أسعده شدة التأمين، وشكر السمسار "عبده مصالح" الذي أوجد له هذه الفيلا.

كان "سرحان الأعسر" قد جند هذا السمسار بالمال لينفذ خطة الخلاص من "دياب النمر" بحرق الفيلا به، كانت فكرة شديدة البشاعة، وفي المساء بعد الساعة العاشرة حان وقت تنفيذ الخطة، فاتصل به "عبده مصالح" فرد عليه وهو مستلق على ظهره يتابع الدش، فنهض يرد عليه:

- عبده مصالح: سيدي "دياب النمر"نسيت أن أخبرك بأن أحدًا سأل عنك.

دياب النمر: من هو؟

-عبده مصالح: يقول أن اسمه ابن الليل.

دياب النمر: لا أتذكر أحدًا بهذا الاسم (لحظة صمت) ماذا يرىد؟.

عبده مصالح: يرىد مني أن أخبرك أن الدنيا يوم لك ويوم عليك، وقد دار الزمن من اليوم عليك.

دياب النمر: ما هذا الكلام الغريب، ومن هو ذلك الوغد الذي يهددني؟

عبده مصالح: يقول إنه صاحب الرمانة الحمراء.

وبعد انتهاء الحوار تذكر كل شيء، تذكر أن ابن الليل كان الاسم الحركي لـ"سرحان الأعسر" عندما كانا يسرقان في شبابهما محلات الذهب، و"الرمانة الحمراء" هو اسم حركي آخر لمحل الذهب الأخير الذي سرقاه معاً منذ أمد بعيد في مدينة الإسكندرية، وبعدها كونا رأس المال اللازم لتجارة المخدرات، وافترقا بعدها بسبب الصراع على"فاتن" بإزاحة "سرحان الأعسر" بعد تدبير قضية آداب له.

نهض "دياب النمر" مذعورًا، فقد ظن أن الماضي قد مات، ولكنه عاد في هذه الليلة، لتبدأ جولة جديدة مجهولة العواقب، نهض يتأكد من غلق النوافذ والأبواب، فقد كان يعلم قسوة خصمه، بيد أن "عبده مصالح" كان قد أغلق البوابة من الخارج بإحكام، وفتح أنبوبتي البوتاجاز، وبمجرد الضغط على مفتاح الكهرباء سوف تشعل الشرارة الكهربائية الصغيرة النار في المكان المرشوش ببدرة شديدة الاشتعال، خرج من غرفته، فوجد رائحة الغاز الخانقة تملأ"بهو الفيلا"، وحتى يحكم غلق كل المنافذ، والأبواب، والشبابيك، ضغط "دياب النمر"علي مفتاح الكهرباء ليرى، فانبعثت شرارة صغيرة من المفتاح أشعلت النيران في المكان برمته، اتجه يجري نحو الباب للفرار بحياته، وجد الباب مغلقًا بجنازير حديدية، رجع إلى الغرفة كي يقفز من الشرفة، وجدها محكمة الغلق بالحديد، فأخذ يصرخ :

- دياب النمر: لماذا هذه القسوة في القتل يا "سرحان" ؟ أيها الوغد لم تجد

سوى الحرق بالنار، (ترفع الصرخات مقترنة بالبكاء) ظننتك نسيت، لماذا لم تسماحني كما سامح "غريب" غريمه "سيف جاد" ؟ الآن أدركت قدرك يا "غريب" وقدر هذا الوغد من بني جنسي.

ارتفعت النيران بالفيلا تأكل ما فيها من أثاث، وظل "دياب النمر" يصرخ حتى مات متفحماً، وأصبحت الفيلا كومًا من الرماد، وفي الصباح جاءت الشرطة ولم تستطع فك خيوط الجريمة، فقد كان "عبده مصالح" اسماً وهميًا، نقلت بقايا عظامه للدفن في قرية "كفر الهوى" بعد أن صرّح الطبيب الشرعي بدفن بقايا الجثة، فعادت بعض عظامه ملفوفة في الكفن.

وفي سرادق العزاء حضر "سرحان الأعسر" يقدم واجب العزاء، فاستقبله "فهد السكران" بترحاب وريبة، بسبب حضوره، وتساءل بينه وبين نفسه:

-هل كان له دور في وفاة دياب ؟.

بيد أنه أخفى هذا الشك، فلا يوجد ما يؤكده، وأيضًا خوفًا من بطشه، فهو اليوم الرجل الكبير الذي يحرك أسواق المخدرات بإشارة من يده، وأيضًا ربما يكون مظلومًا، ولكن عندما ألح في طلبه بالدخول لمواساة "فاتن" وعزائها، عاد الشك مرة أخرى يساوره بقوة، فهو صاحب المصلحة في اختفاء "دياب النمر" من على وجه الأرض.

وعندما دخل معه لعزاء "فاتن" كانت نظراته نحوها مفضوحة، ولم تردعه هبة الموت، وظل يتفحصها من رأسها حتى إخمص قدميها دون حياء، كان يتطلع فيها بشدة ويبلع ريقه بنهم من شدة الشوق نحوها، ثار الدم غيرةً في عروق عمها "فهد السكران" فجذبه إلى الخارج، وبعد أن تأكد من أنه مازال يريد ابنة أخيه ولم ينسىها، زادت حيرته، وبات لا يعلم كيف يتصرف معه إذا جاء يطلب يدها، أو كيف يواجه مثل هذا المأزق ؟